الدكتور حميد الله

اثر الحضارة الاسلامية
في
الحضارة الاوربية

الحمد لله الذى هدى المسلمين الى ماينفعهم فى دينهم و دنيا هم والصلوٰة والسلام على سيد نا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين فبلغ الرسالة وادى الامانة وعبد ربه حتى اتاه اليقين اما بعد :

فانه فى الوقت الذى كان المسلمون ينعمون فيه بظل الحضارة الاسلامية التى افاضت عليهم كل انواع الخير ووقتهم مفاسد الشر وابعد تهم عن مواقع الفتن' فى هذا الوقت الذى كان فيه المسلمون كذلك كان اهل اوروبا يعيشون فى جهالة جهلا و وضلالة عميا بعيدين كل البعد عن كل مظاهر التقدم الحضارى۔

منذ العقد الاخير من القرن الاول الهجرى بدأ شعاء الحضارة الاسلامية يصل الى اوروبا عن طريق الاندلس ثم عن طريق صقلية وكذلك عن طريق الحروب الصليبية ومن قبل تلك الحروب عن طريق السفارات بين دول اوروبا وبين دول المسلمين فى الشرق والغرب۔

ولم يكن تاثير هذا الاشعاع الحضارى متساوية فى الدرجة بل كان بعضه اكثر تاثيرا من الآخر فالاندلس اسبق مصادر الاشعاع واكبرها تاثيرا ثم تلتها فى الأهمية صقلية ثم تاتى بعد ذلك الحروب الصليبية ثم الاتصالات السياسية والتجارية بين الدول الاسلامية والدول الاوربية۔

الاندلس مصدر الاشعاع الاول

عبر المسلمون الى الاندلس فى العقد الاخير من القرن الاول الهجرى و

واصلوا فتوحهم فى اوروبا حتى استولوا على شبه جزيرة ايبريا وجنوب فرنسا ثم استمروا فى فتوحهم حتى استولوا على جزر البحر الابيض المتوسط وجنوب ايطاليا ونشروا دينهم فيما فتحوه من البلاد.

وكانت اوروبا فى ذلك الوقت خلوا من كل مظاهر الحضارة بعد ان تمكنت القبائل المتبربرة من القضاء على الدولة الرومانية الغربية واحتلال الاقاليم التى كانت تخضع لحكمها و على الرغم من ان هذه القبائل دانت بالمسيحية فانها لم تتقدم تقدما حضاريا يستحق الذكر بسبب توالى محيئ موجات جديدة منهم و غلبة الروح العسكرى عليهم و قلة المرونة العقلية لديهم مما جعلهم متخلفين عن ركب الحضارة والمدنية يعيشون فى ظلام الجهالة والهمجية.

وقد نشر المسلمون فى كل بقعة دخلوها من اوروبا لواء الامن و نور المعرفة واقاموا فيها قواعد حكم عادل يسوى بين الجميع فى المعاملة ويكفل الحرية لكل فرد فى المجتمع ويعمل للصالح العام ويمقت الانانية والانتهازية

و تاريخ اسبانيا العربية المسلمة صحيفة مشرقة من صحائف التاريخ الانسانى وسجل حافل بالامجاد ذاخر بمختلف نواحى الحضارة التى كانت مركز اشعاع هائل للحضارة الاوربية.

وقد كان المجتمع فى الاندلس بعد الفتح الاسلامى يتالف من العرب الفاتحين ومن الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام وقد عرفوا باسم "المسالمة" ومن الاسبان الذين استمروا على المسيحية وقد اطلق عليهم اسم "العجم" واصبحوا اهل ذمة يدفعون الجزية للمسلمين و يعيشون آمنين فى وطنهم و يتمتعون بالحرية الدينية والتسامح الذى امتاز به المسلمون فى معاملتهم لمخالفيهم فى الدين.

وكان من بين هولاء جماعة عاشر والعرب و تعلموا لغتهم و درسوا علومهم وقلدوهم فى عاداتهم واسلوب معيشتهم واطلق على هذه الطائفة اسم "المستعربين" ()

وعن طريق هولاء الذين جمعوا بين معرفة اللغة العربية واللغة اللاتينية

الحديثة نقلت حضارة العرب الى الامارات الشمالية فى شبه جزيرة ايبريا التى اتخذها المسيحيون معقلا لهم واعتصموا بجبالها ولم يدخلوا فى طاعة المسلمين۔

وبعد جيل من الفتح تكون من المسلمين العرب والاسبان عنصر جديد عرف "بالمولدين" وهم الذين ولدوا من آباء عرب وامهات اسبانيات وعلى مر الزمن كثر عدد هولاء حتى اصبحوا يكونون اغلب سكان الاندلس۔

وقد وصلت الحضارة العربية فى الاندلس الى درجة عالية من الازدهار و بخاصة فى القرن الرابع الهجرى حيث كانت مدينة قرطبة العاصمة تضم مائة و ثلاثة عشر الف مسكن وواحد وعشرين ضاحية وكان بها سبعون دارا للكتب وعدد لايحصى كثرة من الحوانيت كما كان بها كثير من المساجد وكان اغلب شوارعها مرصوفا و مضائا (٢) وكانت بقية المدن صورة مصغرة من العاصمة۔

و فى محيط الزراعة غرس العرب الكروم فى بلاد الاندلس واد خلوا اليها كثيرا من النباتات والفواكه التى لم تكن بها۔ - - - وكان الرقى الزراعى احد مفاخر اسبانيا الاسلامية (٣)

و فى ميدان الصناعة ازدهرت صناعة النسيج و الزجاج والنحاس والخزف والسيوف وكثر استخراج الذهب والفضة والحديد والرصاص وغيره من المعادن (٤)

ولقد ازدهرت الحياة الثقافية فى الاندلس و بخاصة فى عهد الحكم الثانى (٣٥٠ - ٣٦٦ ھ) وكانت جامعة قرطبة التى انشاها والده عبدالرحمٰن الناصر فى المسجد الجامع يفد اليها الطلاب من جميع انحاء الاندلس ومن افريقيا واوروبا۔ وقد استدعى الحكم بعض الاساتذة المشهورين من الشرق ليحاضروا فيها من بينهم العالم اللغوى المشهور ابو على القالى مولف كتاب الامالى (٤) وكان المورخ الاندلس ابن القوطية يدرس النحو بها۔ (٥)

وكان الحكم مغرما باقتناء الكتب فكان يكلف رجاله بالبحث عن المخطوطات فى حوانيت الاسكندرية و دمشق و بغداد وشرائها و نسخها و بهذه الطريقة تمكن من جمع اربعماة الف كتاب (٦) وكان يطلع بنفسه على بعض

هذه المخطوطات ويكتب ملاحظات فى هوامشها مما جعل لها قيمة كبيرة فى نظر العلماء المتاخرين- وقداراد ان يحصل على النسخة الاولى لكتاب الاغانى التى كتبها ابوالفرج الاصفهانى بنفسه- وهو من سلالة الامويين- وكان يقيم اذذاك بالعراق فبعث اليه دينار ثمنا لها-

وكان المسيحيون الاسبان الذين هاجروا الى كثير من بلاد اوروبا قد اشادوا بالعرب وشرائهم وحضارتهم و ثقافتهم وبالعمران الذى عم البلاد الاسبانية على ايديهم فنشروا بذلك- من حيث لايقصدون- دعاية طيبة للمسلمين فى اوروبا ونبهوا اذهان اهلها الى النهضة الحضارية التى قام بها المسلمون فى اسبانيا-

وكان هولاء المهاجرون قد تسرعوا فى هجرتهم خوفا على انفسهم من بطش المسلمين بهم من غير ان ينتظروا ما سيكون منهم ان المسلمين يحنون جوارهم ويطلقون لهم الحرية فى اداء شعائر دينهم و يعاملونهم بالحسنى وينشرون العدل والامن فى سائر البلاد وانهم حولوا اسبانيا الى مروج خضراء جنات فيحاء-

هذه الدعاية غير المقصودة التى نشرها المهاجرون الاسبان فى اكثر بقاع اوروبا جعلت اهلها يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية التى وصلت اخبارها اليهم وكان اسبق الاوربيين الى ذلك الملك فيليب البافارى حيث بعث الى الاندلس يرجو الامير الاموى هشاما الاول (١٧٢ - ١٨٠هـ) يرجوه ان يسمح له بايفاد بعثة الى قرطبة لدراسة انظمة الاندلس وثقافتها مشاهدة اوجه النشاط بها فقبل الامير رجاه وارسل الملك الجرمانى وفدا الى لاندلس براسة وزيره الاول "ويلميبن" الذى اطلق عليه الاندليسون اسم "وليم الامين" لانه تحرى الامانة فى نقل ماراه من مظاهر نهضة بلادهم الى الملك- وقداشار الوزير على الملك بالاستمرار فى ارسال البعثات العلمية لاقتباس مايفيد البلاد من فنون الحضارة العربية-

وقد توالت البعثات على الاندلس بعد ذلك وفى اوائل القرن الخامس الهجرى ارسل جورج الثانى ملك انجلتر ابنة اخيه الاميرة "دوبانت" على راس بعثة من ثمان عشرة فتاة من بنات الامراء والاعيان الى اشبيلية بمرافقة النبيل "

سفليك" رئيس موظفي القصر الملكي وارسل معه كتابا الى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الامويين بالاندلس جاء فيه بعد الديباجة "وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهدا العلم والصناعات في بلادكم العامرة فاردنا لابنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء اثركم نشر انوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من اركانها الاربعة وقد ارسلنا ابنة شقيقتنا الاميرة "دوبانت" على راس بعثة من بنات الاشراف الانجيلز لتتشرف بلثم اهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن وقد ارفقت الاميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ارجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع جورج.

وقد رد الخليفة هشام الثالث على ملك انجلترا برسالة جاء فيها لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشاره من يعنيهم الامر على طلبكم وعليه فاننا نعلمكم بانه سينفق على هذا البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي اما هديتكم قد تلقيتها بسرور زائد وبالمقابلة ابعث اليكم بغالي الطنافس الاندلسية وهي من صنع ابنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام. خليفة رسول الله على ديار الاندلس: هشام.

وفي عهد ملوك الطوائف في الاندلس.

وفي عهد ملوك الطوائف في الاندلس كانت توخد الى معاهد غرناطة واشبيلية وغيرهما بعثات من فرنسا وايطاليا والاراضي الواطئة لتنهل من الحضارة العربية وكان طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها حتى ان بعضهم اعتنق الاسلام وفضل البقاء بالاندلس ولم يعد الى بلاده(٧)

وكانت مدينة طليطلة بعد سقوطها في ايدي المسيحين سنة ٤٨٧ هـ المركز الرئيسي لحركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وقد انشاء "ريموند"

رئيس اساقفتها مكتبا للترجمة. وكان المستعربون من اهل الاندلس اكبر المساهمين فى حركة الترجمة ومن اشهرهم "دو موينقوس جونديسالفى" و "ويطرس الفونسى" و "حنا الاشبيلى" وغيرهم(٨)

وقد ترتب على هذه الحركة وجود ثورة علمية وفكرية هائلة فى غرب اوروبا : ذلك لان المعارف الجديدة التى نقلت من العربية الى الاتينية اضاءت امام الاوربيين طريق الحياة وبددت ضباب الجهالة الذى حجب عنهم رؤية الحضارة وايقظتهم من سباتهم العميق ونبهتهم من غفلتهم الطويلة فاقبلوا على دراسة الحضارة الاسلامية بشغف بالغ ونهم شديد(٩)

ففى علم الحساب مثلا عرفوا نظام الاعداد الهندية عن العرب وهو النظام الذى تتغير فيه قيمة الرقم بنقله من خانة الاحاد الى خانة العشرات او المئات اوالالاف وما بعدها واستعملوه فى عملياتهم الحسابية بدل الارقام الرومانية التى كانت عملياتها الحسابية تتطلب منهم وقتا طويلا.

ومن المرجح ان البابا "سلفتر" الثانى الذى قضى سنوات عديدة فى شمال اسبانيا كان من اوائل الاوربيين الذين نقلوا نظام الاعداد العربى الى الغرب هذا بالاضافة الى تشجيعه على ترجمة كثير من المؤلفات العربية الى اللاتينية وبخاصة مايتعلق منها بعلم الجغرافيا.

وقد عرف الاوربيون علم الجبر - لاول مرة - عن العرب كما نقلوا عنهم علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة وكثيرا من انواع فروع المعرفة المختلفة.

وقد سلكت الفنون الاسلامية سبيلها الى اوربا عن طريق الاندلس كذلك مثل صناعة الخزف والنسيج والتعدين وصناعة المعادن والنجارة والتطعيم بالعاج وغيرها من الصناعات(١٠)

ومن هذا العرض السريع نتبين اهمية الدور الذى قامت به الاندلس فى نقل الحضارة الاسلامية الى ربوع اوربا فكانت اساس نهضتها فى العصور الحديثة وسببا فيما تنعم به الان من حياة مرفهة وثراء وفير وما تفخر به من تفوق فى العلوم والفنون.

صقيلة مصدر الاشعاع الثانى :

حاول المسلمون فتح جزيرة صقلية منذ عهد معاوية بن ابى سفيان فقد ارسل واليه على مصر وافريقية معاوية بن حديج جيشا بقيادة عبدالله بن قيس الغزاوى لغزوها ولكن ابن قيس لم يتمكن من ذلك ثم تجددت المحاولة عدة مرات ولكن اقدام المسلمين لم تثبت فى هذه الجزيرة الا فى اوائل القرن الثالث الهجرى حيث ابتداء فتحها سنة ٢١٢هـ زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب الذى كان واليا على افريقية من قبل الخليفة المامون العباسى.

وكان سبب فتحها ان امبراطور الدولة البيزنطية "ميخائل الثانى" ولى عليها "قسطنطين البطريق" فارسل الامير القائد قسطنطين" "بوفيموس" على راس اسطول نهب ساحل افريقية ولكن الامبراطور غضب على هذا القائد لما بلغه من انه اختطف راهبة من احد الاديرة هناك ففرا القائد الى مدينة " سرقوسة" الواقعة على ساحل صقلية الشرقى واعلن الثورة على حاكم الجزيرة غير انه رامى ان لاطاقة له على مقاومة جيوش الامبراطور واساطيله فلجاء الى زيادة الله بن الاغلب امير افريقية واغراه بغزو صقلية وهون عليه فتحها فجهز الامير الاغلبى جيشا واسطولا يتالف من مائة سفينة بقيادة اسد بن الفرات قاضى القيروان وسيره لفتحها (١١)

وقد لقى المسلمون صعوبات كثيرة فى فتحها ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها جميعها الا فى عهد ابراهيم الثانى الاغلبى سنه ٢٦٤هـ وقد ظلت صقلية تابعة لدولة الاغالبة حتى سقطت هذه الدولة على ايدى الفاطميين سنه ٩٩٦هـ فدخلت صقلية فى حوزتهم ولكن العرب الذين كانوا يستوطنونها اعلنوا الثورة على الفاطميين بزعامة احمد بن قرهب بعد اربع سنوات من حكمهم واعترفوا بسيادة الدولة العباسية (١٢)

ومنذ اوائل القرن الرابع الهجرى اخذ البيزنطيون يكثرون من الغارات على الجزيرة فشغل ولاتها من قبل الفاطميين بعد هذه الغارات وفى الوقت نفسه قامت اضطرابات بين العرب انفسهم داخل صقيلة فادى ذالك الى ضعفهم

وعجزهم عن الدفاع عن الجزيرة ولم يكن فى وسع الفاطميين بالقاهرة ان يمدوهم بالجيوش لاضطراب الامور فيها فانتهز النور ماندیون هذه الفرصة واخذوا يستولون على ثغور الجزيرة ومدنها الواحدة تلو الاخرى حتى تم للملك "روجر الاول" الاستيلاء على جميع نواحى الجزيرة سنه ٤٨٣هـ وبذلك انتهى حكم العرب فيها بعد ان استمر مائتين وعشرين عاما- (١٣)

وكان "روجر الثانى" يرتدى الملابس العربية ويطرز رداء بحروف عربية وقد نقش على سقف كنيسة التى بناها فى مدينة "بالرمو" نقوشا بالخط الكوفى- وكان الادريس الجغرافى الرحالة واعظم رسامى الخرائط محببا اليه مقربا عنده وقد شجعه الملك على بحوثه الجغرافية وقدم له كل مساعدة وبذل له من المال ما مكنه من ارسال الرسل الى كثير من الاقاليم لامداده بالمعلومات الجغرافيه عنها-

وكذلك كان الملك "وليم" بن الملك روجر الثانى و حفيد الملك روجر الاول يعتمد على العرب فيقربهم اليه ويثق فيهم وقد عبر عن ذلك شاهد عيان هو الرحالة بن جبير فى حديث له عن الملك بقوله - - - - - انه عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين وانه لكثير الثقة بهم و ساكن اليهم فى احواله و المهم من اشغاله وله منهم الاطباء والمنجمون. وهو شديد الحرص عليهم- (١٤)

وكان الامبرا طور "فردريک الثانى" الذى ورث عرش الامبرا طورية الرومانية المقدسة عن ابيه الالمانى كما ورث عرش صقلية عن امه الايطالية كان قد ولد بصقلية و تربى بها و تعلم فيها فنشاء محبا للعلوم العربية وكان يحسن التكلم باللغة العربية وقد افاض المؤرخون العرب والاوربيون فى وصف حبه للمسلين و اعجابه بعلومهم و حضارتهم واخلاقهم و تقريبه لهم واستخدامهم فى حاشيته حتى ان الموذنين المسلمين كانوا يوذنون عند موعد كل صلاة فى معسكره (١٥)

وقد استمر الصداقة قائمة بين "فردريک الثانى" وسلاطين مصر بعد وفاة السلطان الكامل سنه ٦٣٥هـ يدل على ذلک ما اشارت اليه المراجع التاريخية من

ان الامبراطور حذر الصالح نجم الدين ايوب عندما علم بنية ملك فرنسا "لويس التاسع" القيام بالحملة الصيلبية السابعة ضد مصر سنه ٦٤٧هـ حيث ارسل اليه وهو بدمشق- رسولا تظاهر بانه تاجر واستر اليه بان لويس التاسع يعتزم توجيه حملة الى مصر للاستيلاء عليها فاسرع الصالح بالعودة الى مصر للدفاع عنها(١٦)

وقد ظل العرب يحتفظون بضياعهم واموالهم ومتاجرهم ومصانعهم فى الجزيرة ويزاولون نشاطهم الزراعى والتجارى والصناعى بحرية تامه-

كما ظلت اللغة العربية شائعة فى الجزيرة وكان ملوك النور ماند ليحسنون التكلم بها ويطربون لادبها وشعرها- ويظهر ان استعمالها استمر الى اواخر القرن التاسع الهجرى ويويد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها علماء الاثار حديثا سواء قبور مسلمين ام قبور مسيحين-

وقد ترك العرب فى جزيرة صقلية كثيرا من عادتهم وتقاليدم التى لاتزال باقية حتى اللان كما تركوا الفاظا عربية كثيرة فى اللغة الصقلية والايطالية- ولا تزال مدن كثيرة فى الجزيرة تحمل اسماء عربية وفى مدينة بالرمو مبنيان عظيمان من مبانى العرب احدهما قلعة العزيزة والاخر قصر القبة-

ومما تقدم يتبين ان الحضارة الاسلامية ازدهرت فى الجزيرة نحوستة قرون من الزمن وقد خرجت صقلية العربية عددا غير قليل من المحدثين والفقهاء والنحويين والادباء والمورخين والجغرافيين والاطباء والفلاسفة- نذكر منهم على سبيل المثال اسد الدين من الحارث صاحب كتاب الاسديات فى الفقه والقاضى ميمون بن عمر وابن حمديس الصقلى الشاعر المبدع والشريف الادريسى الجغرافى المحقق والحسن بن يحيى المصروف بابن الخزاز صاحب تاريخ صقلية وعيسى بن عبدالمنعم وكان من اهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة وابو عبدالله الصقلى الفيلسون وغيرهم كثير-

وقد انشا العرب فى مدينة بالرمو عاصمة صقلية اول مدرسة للطب فى اوربا وعن طريقها انتشر الطب فى ايطاليا وسائر آرجاء القارة- اذن كانت جزيرة

صقلية مركز اشعاع للحضارة الاسلامية العربية افادت منه اوربا اعظم الفائدة لان الجزيرة كانت على صلة وثيقة بالعالم الاسلامى ونجاصقمايقع منه على شواطى البحر المتوسط مثل الشام و مصر و بلاد المغرب و كانت البلاد الاسلامية فى العصور الوسطى وطناعاما للمسلمين لافرق بين مشرقى و مغربى فلم تكن هناك قيود على انتقال العلماء من بلد اسلامى الى بلد آخر فكثرت تنقلا تهم وساعد هذا على تبادل الا راء وانتقالها من جهة الى جهة فلم تكن حضارة المسلمين فى صقلية من صنع اهلها و حدهم بل كانت حضارة اسلامية شاملة لنتا جها ونتاج العالم الاسلامى كله ومن هناك ترجمت وتسربت الى جميع اصقاع اوروبا-

لذلك لانكون مبالغين اذا قلنا ان صقلية ساهمت فى تحضير اوربا و تنويرها بنصيب يقرب من نصيب الاندلس ولكنه يقل عنه لان رقعتها اضيق بكثير من رقعة الاندلس ولان عدد من انجبتهم من العلماء لم يصل فى شهرة العلمية الى ماوصل اليه علماء الاندلس-

وهذا لايغض من قيمة الدور الذى قامت به صقلية فى امداد اوروبا بكل مظاهر الحضارة ماكان منها من صنع العرب الذين استوطنوها اومما نقلوه عن غيرهم من الدول الاسلامية الاخرى-

دور الحروب الصليبية فى نقل الحضارة الاسلامية فى اواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) خرجت جموع من المسيحين الاورو بيين مختلفى النزعات والاغراض لغزو الشرق الاسلامى- والاسباب التى رفعت هولاء الى شن تلك الحروب التى عرفت فى التاريخ باسم " الحروب الصليبية" نسبة الى الصليب الذى اتخذه المحاربون شارة لهم اسباب واضحة تختلف باختلاف الطوائف التى اشتركت فيها-

ويمكننا ان نعتبر رغبة القبائل القيوتونية فى السيطرة وحبهم للمخاطرة من بين تلك الاسباب كما لانستبعد ان يكون منهم الخليفة الفاطمى الحاكم بامر الله لكنيسة القيامة فى اواخر القرن الرابع الهجرى من بين الاسباب التى انتهت هذه الحروب(١٧)

اما ادعاء الحجاج المسيحين انهم كانوا يلقون مصاعب فى اثناء اجتيازتهم آسيا الصغرى الاسلامية وهم فى طريقهم الى بيت المقدس او انهم كانوا يتعرضون لمضايقات من جانب المسلمين فى اثناء حجهم فليس له ما يبرره تعاليم الاسلام كفلت لاهل الاديان الاخرى الحرية التامة فى مزاولة شعائر دينهم ونهت عن التعرض لهم بسوء مار داموا مسالمين ولا نظن ان مسلمى هذا العصر كانوا يجهلون ذلك.

ولان سلمنا حدوث بعض مضايقات فان ذلك لا يعدو ان يكون حوادث فردية صدرت من بعض جهلة المسلمين وحتى على فرض صدورها فانها لا تقتضى هذه الضجة الكبرى التى اثارها الغرب ضد المسلمين ولا تستلزم سفك ما سفك من دماء فى هذه الحروب التى استمرت نحو قرنين من الزمن.

وكان الراهب بطرس الناسك الذى حج البيت المقدس وعز عليه ان يراه ملكا للمسلمين وهو المكان الذى يقدسه المسيحيون : كان هذا الراهب هو الذى روج تلك الاشاعات على ان السبب المباشر لتلك الماساة التى ذهب ضحيتها عدد من البشر هو استنجاد الامبراطور "الكسيوس كمنينوس" امبراطور الدولة البيزنطية بالبابا "اربان الثانى" بطريك الكنيسة الغربية بعد هزيمة البيزنطيين امام السلاجقة فى موقعة "ملاذكر" فى اواخر سنة ٤٦٣هـ (١٨) وكان هذا الاستنجاد بعد الموقعة باكثر من عشرين سنة ولكنه صادف هوى فى نفس البابا الذى كان يطمع فى ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية فاثار تلك الضجة العالمية التى تعتبر من اهم احداث التاريخ العالمى.

فى العام التالى لهذا الاستنجاد القى البابا خطبة فى مدينة "كلير منت" فى الجنوب الشرقى لفرنسا حث فيها المومنين على ان "يسلكوا سبيلهم الى القبر المقدس وياخذوه عنوة من ذلك الشعب الملعون ويخضعوه لانفسهم (١٩) ولقد اشعلت هذه الخطبة جذوة الحماس فى نفوس الجماهير المسيحية شريفهم ووضيعهم على السواء وبلغ عدد المتطوعين لهذه الحرب مائة وخمسين الفا من النورمانديين والفرنج.

ولم يكن الحماس الدينى وحده هو الذى دفع هذه الجماهير الى شن الغارة

على الشرق بل ان كثيرا من الامراء ومن بينهم "بوهيمند" - خرجوا استجابة لاطماعهم فى تكوين امارات لهم فى الشرق الاوسط كما كانت المصالح الاقتصادية هدف تجار البندقية وبيزة وجنوة.

وقد نجح الصليبيون فى تكوين اربع امارات لهم فى الشرق وهى امارة الرها وامارة انطاكيا وامارة طرابلس وامارة بيت المقدس وسميت هذه الامارات مملكة بيت المقدس حيث كان امير بيت المقدس يتوج ملكا لهذه المملكة وان كان كل امير مستقلا داخلا فى امارة.

وكان الاعتداء الصليبى على الشرق سببا فى ظهور قوى اسلامية فتية فقد تحمس الابطال المسلمون لاسترداد بلادهم المغتصبة و تمكن البطل عماد الدين زنكى من استرداد اماره الرها اول امارة انشاها الصليبيون فى الشرق واهم اماراتهم وقد تم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ (٢٠)

ثم جاء بعده ابنه السلطان نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) فوحد بلاد الشام تحت حكمه وضم اليها مصر - ولم يتمكن الصليبيون فى عهده من اضافة شبر واحد الى ممتلكاتهم فى الشرق بل انتزع السلطان من ايديهم كثيرا من البلاد التى كانوا قد احتلوها قبل ان يتنبه المسلمون لخطرهم وحمل لواء الجهاد فى عهده ومن بعده السلطان صلاح الدين الايوبى (٥٦٧ - ٥٨٩ هـ) فانتزع بيت المقدس من ايدى الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ (٢١)

ثم اخذ سلاطين الايوبيين والمماليك من بعدهم ينتزعون المدن الاسلامية من ايدى هولاء المغتصبين مدينة بعد اخرى حتى انتزع السلطان المملوكى الاشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ) مدينة عكا آخر معقل لهم فى الشرق سنه ٦٩٩ هـ (٢٢) وبذلك قضى على مملكة الصيلبين القضاء الاخير.

كان الاثر الحضارى لهذه الحروب فنيا وصناعيا وتجاريا اكثر منه علميا او ادبيا فقد كان الاور و بيون الذين اقاموا فى الشام فى الامارات التى انشؤوها يعيشون داخل حصون و ثكنات عسكرية وكان اتصالهم بالزراع الوطنيين والصناع اكثر من اتصالهم بالطبقة المثقفة على انهم مع ذلك استفادوا علميا وان كانت استفادة محدودة فقد نقل احد علماء مدينة بيزة الكتاب الطبى

المشهور "كامل الصناعة الطبية" لعلى بن العباس المعروف بالمجوسى نسبة احد اجداده الذى كان يدين بالمجوسية قبل ان يعتنق الاسلام و ترجم فيليب الطرابلسى مخطوطا عربيا" فى الفلسفة والاخلاق يسمى "سر الاسرار" يقال ان ارسطو الفه تلميذه الاسكندر المقدونى.

كما كان من اثر الحروب الصليبة العلمى اهتمام الاور بيين يتعلم اللغة العربية لانهم وقد فشلوا فى نشر الديانة المسيحية بينهم باللين والاغرا (٢٣)

على ان انشاء المستشفيات ومعالجة المرضى فيها لم يعرف فى اوروبا قبل الحروب الصليبية مماير جح ان هذا النظام منقول عن الشرق الاسلامى بعد ان شاهد الاور بيون المستشفيات فيه اثناء الحروب الصليبية كما يرجع ايضا ان نظام الحمامات العامة الذى انتقل الى اوروبا بعد الحروب الصليبية منقول كذلك بواساطتها.

وقد كان اثر الحروب الصليبية فى نقل الفنون الحربية الى اوروبا واضحا فقد تعلم الصليبيون من المسلمين استخدام حمام الزاجل فى نقل الاخبار الحربية (٢٤) كما اقتبسوا منهم الاحتفال مالانتصارات باشعال النيران ولعبة الفردوسية المعروفة باسم "الجريد" وكذلك نقلوا عنهم اتخاذ الشعارات ونقشها على الاسلحة والخوذات و كان اتخاذ الشعارات معروفا عند المسلمين فقد كان صلاح الدين يلبس خوذة عليها رسم النسر و كانت خوذة الظاهر بيبرس على شكل اسد كخوذة ابن طولون من قبل ولم يكن ذلك معروفا فى اوروبا قبل الحروب الصليبية.

وفى مجال الزراعة والصناعة والتجارة نقل الصليبيون العائدون الى اوروبا كثيرا من النباتات واشجارا الفواكه مثل السمسم والبصل والارز والبطيخ والبرقوق والليمون كما حملوا معهم حين عود تهم البسط والسجا جيد المنسوجات و بدات تظهر فى اوروبا مصانع الانية والبسط والاقمشة تقليدا للمنتجات الشرقية ووجدت سوق اوروبية جديدة لمنتجات الزراعية الشرقية والسلع الصناعية مماساعد على نشاط التجارة الدولية التى كانت قد ركدت منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية فى القرن الخامس الميلادى (٢٥)

السفارات بين بول اور وبا والدول الاسلامية

حدثت اتصالات بين دول اوروبا والدول الاسلامية فى العصور الوسطى كان لها اثر - ولو ضئيل - فى نقل حضارة المسلمين الى اوروبا فيحدثنا التاريخ انه عندما يئس الخليفة ابوجعفر المنصور ثانى - خلفاء العباسيين من مد سلطانه الى بلاد الاندلس التى اسس فيها الامير الاموى عبدالرحمن بن معاوية بن هشام امارة اموية -

عند مايئس ابوجعفر من التغلب على هذا الامير بالقوة لجاء الى سلاح سياسى يستعين به على الوصول الى غرضه فاراد التحالف مع "بين" ملك الفرنجة على طرد الامويين من الاندلس

وقد مهد ابوجعفر لذلك بارسال سفارة الى "بين" وجرت مفاوضات بين رسل الخليفة و بين ملك الفرنجة على ليتفاوضوا مع ابى جعفر فى التحالف مع دولة الفرنجة على سحق الدولة البيزنطية عدوتها و عادوا الى بلادهم يحملون الهدايا النفيسة التى ارسلها الخليفة الى ملكهم -

ولم تود هذه المفاوضات الى نتيجة ايجابية لكل من الطرفين اكثر من ازعاج عبدالرحمن الداخل و تخويفه من هجوم الفرنجة على بلاده وازعاج البيزنطيين من هجوم العباسيين على بلادهم ويوخذ على حكام المسلمين الاستعانة بغير المسلمين للتغلب على اخوانهم الدين فالمسلمون اخوة ينصر بعضهم بعضا ويقفون صفا واحدا للدفاع عن عقيدتهم وصداى عدوان يوجه اليها "ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا" -

وفى عهد الخليفة هارون الرشيد تحددت العلاقة بين دولة الفرنجة والدولة العباسية حيث خطب شارلمان ود الرشيد فارسل اليه يطلب التحالف معه ضد البيزنطيين ويرجوه ان ييسر الحج الى بيت المقدس للفرنجة وان تتبادل دولة الفرنجة التجارة مع الدولة العباسية وان يمده بالكتب كما ارسل الرشيد بعثة الى بلاط شارلمان بغية التحالف معه ضد الامبراطورية البيزنطية والامويين بالاندلس وقد اسفرت هذه المفاوضات عن ارسال مفاتيح كنيسة

القيامة الى شارلمان و تبادل الهدايا بينه و بين الرشيد وكان من بين الهدايا التى ارسلها الرشيد الى شارلمان فيل وساعة مائية دقاقة واقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب وبسط و مواد عطرية(٢٦)

ولم تسفر هذه المفاوضات عن عمل ايجابى من جانب شارلمان ضد الامويين فى الاندلس لانه لم يجازف بالدخول فى حرب مع الامويين لايدرى مغبتها حيث ادرك استحالة القضاء على الامارة الاموية التى اصبحت ثابتة البنيان موطدة الدعائم واكتفى هو واولاده من بعده بالدفاع عن املاكهم ولم يفكروا فى توجيه حملات هجومية ضد الامويين.

وكما حاول الفرنجة والعباسيون ان يتحالفوا ضد البيزنطيين والامويين كذلك حاول الامويون والبيزنطيون ان يتحالفوا ضد العباسيين والفرنجة. وقد بدات هذه المحاولة فى عهد "الامبراطور البيزنطى" تيوفيل الذى اشتد العداء بينه وبين الخليفة العباسى بالله فقد هاجم الامبراطور حصن زبطرة الاسلاس وضربه عليه الخليفة بالهجوم على عمورية و تخريبها سنة ٢٢٣هـ كما خرب كثيرا من المدن البيزنطية(٢٧)

بعث الامبراطور "تيوفيل" سفيره "كريتوس" ومعه هدايا نفيسه ورسالة يطلب فيها صداقة عبد الرحمن الثانى (الاوسط) امير الاندلس ويرجوه عقد معاهده صداقة ويحرضه على استعادة مقر خلافة اجداده. وقد رد الامير عبدالرحمن الاوسط على "تيوفيل" بخطاب عبر فيه عن عداوته للعباسيين دون ان يرتبط معه بمعاهده حربية ضدهم وهذا تصرف نبيل من الامير المسلم يستحق الثناء عليه حيث لم يتفق مع المسيحيين على حرب المسلمين.

ومع ان هذا المراسلات لم تودى الى عقد تحالف فعلى فانها لم تخل من فائدة حيث اوجدت حالة استقرار فى غرب اوربا اذان الامويين والفرنجة اقتنعوا بانه من الخير لهم ان يتفاهموا وان تكف كل من الدولتين عن حرب الاخرى و تنصرف كل منها الى رعاية مصالحها و تعمل على تقدمها الحضارى و تنصرف كل منها الى رعاية مصالحها و تعمل على تقدمها الحضارى.

وقد نشات بين المدن الايطالية و بين الدولة الفاطمية بمصر والشام

علاقات قائمة بين الود والعداء فقد ارسلت مدينة بيزا سفيرا الى بلاد الخليفة الفاطمى الظاهر (٤١١ - ٤٢٧هـ) لتسوية المشكلة التى تسببت عن اعتداء بعض تجار بيزا على جماعة من التجار المصريين فى البحر الابيض على مقربة من بيزا و سلب اموالهم و قتل بعضهم وقد انتقمت الحكومة الفاطمية لرعاياها وعاقبت التجار البيزيين المقيمين بمصر.

ونجح سفير بيزا فى تسوية الخلاف بعد ان تعهد عن حكومته بالاقتصاص عن المعتدين كما تعهد بالامتناع عن امداد اعداء المسلمين باى مساعدة و فى نظير ذلك تعهدت الحكومة الفاطمية باطلاق سراح التجار البيزيين المسجونين بمصر و حماية حجاج بيت المقدس القادمين من بيزا على سفن غير حربية.

وعندما تولى الصالح بن رزيك الوزارة المصرية بادرت حكومة بيزا بارسال وفد لتهنئته فرحب الوزير بهم واكرمهم واكد المعاهدات القديمة بينهما.

وقدقامت صلات ودية بين مدينة جنوة والدولة الفاطمية وازدادت هذه الصلات فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى فقد بعثت جنوة سفراء معاهدة مع الحكومة الفاطمية و تمخضت المفاوضات بين الطرفين عن تعهد الحكومة الفاطمية بحماية رعايا جنوة فى مصر و كان معظمهم يقيمون فى مدينة الاسكندرية.

وكذلك قامت علاقات بين البندقية والدولة الفاطمية حيث تعهدت البندقية فى القرن الرابع الهجرى بامداد الفاطميين بما يحتاجونه من الاخشاب التى تلزم لبناء الاسطول الفاطمى المرابط فى سواحل مصر وسواحل الشام و لكن البندقية توقفت بعد فترة عن ارسال الاخشاب تحت تهديد حكومة بيزنطية. فتعكر صفو العلاقات بينها وبين الفاطميين غير ان البندقية لم تلبث ان ادركت ان مصالحها التجارية تحسم عليها ان تعيد علاقاتها الطيبة بالقاهرة فعادت الى ما كانت عليه من امدادها بالاخشاب نظير حصولها على امتيازات خاصة لسفنها التى تمر بالمياه المصرية و تنقل حاصلات افريقية

و آسيا الى اوروبا (٢٨)

ومما لا شک فيه ان هذه السفارات قامت بدور فی توصيل حضارة المسلمين الى دول الغرب لان السفراء كانوا يطلعون على مظاهر الحضارة فی العالم الاسلامی و ينقلون فكرة عماشاهدوه الى بلادهم لكن عدد هولاء السفراء بالطبع - كان محدودا واقامتهم فی البلاد الاسلامية لم تكن طويلة بل كانت مدتها تتوقف على انتهاء المهة التی ارسلوا من اجلها۔

ولذلک لم يكن دور هذه الاتصالات بارزا فی نقل الحضارة الاسلامية بل كان نصيبه محدودا يقتصر اغلبه على الجانب المادی للحضارة اما الجانب الثقافی منها فقد كان قليل جدا كما اقتصر نقل التجار على الجانب المادی فقط لان همتهم كانت متجهة اولا" و بالذات الى الحصول على المال فكانوا ينقلون التحف بقصد الكسب من وراثها فحسب و لم تكن الثقافة والفن مما يحرص التجار على تداوله۔

من كل ماتقدم نعلم انما تنعم الدول الجزية به من حضارة ليس من ابتكار عقول اهلها ولا من صنع ايديهم انما هو فيض الحضارة وصل اليهم عن تلک المصادر التی تكلمنا عنها۔

وقد اهتم الغربيون بالجانب المادی من الحضارة التی وصلت اليهم من الشرق واغفلوا الجانب الروحی والمهم وليتهم وجهوا الجانب المادی وجهة صالحة تعمر ولا تخرب و تبنی ولا تهدم بل تفننوا فی نقل وسائل التخريب والتدمير حتى اصبح العالم يعيش اليوم فی جو من القلق والرعب اللذين يحب ان يخلو منها المجتمع الحضاری۔

ويوم يرجع المسلمون الى التمسک بقواعد دينهم والسير على هداها فسوف يعيدون الى المجتمع الانسانی نعمة الامن و يخرجونه عن جو القلق والرعب الى جو الطمانينة والسعادة والله سبحانه و تعالى يهدی الى سواء السبيل نساله جلت قدرته ان يعيد للمسلمين عزهم ومجدهم انه سميع مجيب والحمد لله رب العلمين۔

الهوامش

١- لطفی عبدالسمیع : الاسلام فی اسبانیا، ص ٣٠-٣١
٢- المقری : نفح الطیب، ١ / ٢٩٨
٣- جوت هل : الحضارة العربیة، ص ١١٩
٤- ابن حوقل : المسالک والممالک، ص ٧٨-٧٩
٥- ابن خلکان : وفیات الاعیان، ١ / ١٣٠-١٣١
٦- عبدالحلیم العویس : ابن حزم الاندلسی، ص ٣٧
٧- المدور : الدیانات والحضارات، ص ٧٠
٨- سعید عاشور : اوروبا فی العصور الوسطی، ص ٢١٧
٩- بالنشیا : تاریخ الفکر الاندلسی، ص ٥٣٦
١٠- هل : الحضارة العربیه ص ١٢٠
١١- اماری : مکتبته صقلیة العربیة، / ٤٢٧-٤٢٩
١٢- ابن الاثیر : الکامل، ٨ / ٥٣-٥٤
١٣- اماری : مکتبه صقلیة العربیة، ص ٤٧٢
١٤- رحلة ابن جبیر، ص ٣٣١
١٥- المقریزی : السلوک لمعرفة دول الملوک، / ٣٨٢
١٦- المقریزی : الخطط، ١ / ٢١٩
١٧- ابن الاثیر : الکامل، ٨ / ٤٤-٤٥
١٨- ابن الاثیر : الکامل، ٨ / ٤٤-٤٥
١٩- فیلیب هتی : تاریخ العرب، ٢ / ٨٢٢
٢٠- اسحاق ارملة : الحروب الصلیبیة، ٨ / ٤٤-٤٥
٢١- ابن شداد : سیرة صلاح الدین، ص ٦٦-٦٧
٢٢- ابوالفداء : المختصر فی اخبار البشر، ٣ / ٧٤
٢٣- فیلیب هتی : تاریخ العرب، ٢ / ٨٥٧-٨٥٨
٢٤- السیوطی : حسن المحاضرة، ٢ / ١٦٨

٢٥- فيليب هتى : تاريخ العرب، ٢ / ٦٥
٢٦- جميلة نخله : حضارة الاسلام، ص١٠١
٢٧- ابراهيم العدوى : المسلمون والجرمان، ص٢٧٠
٢٨- جمال سرور : الدولة الفاطمية، ص١٧٥-١٧٦

الحلال الحرام

عن النّعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الحلالَ بيّنٌ، وإنّ الحرامَ بيّنٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشكُ أنْ يرتَعَ فيه، ألا وإنّ لكلّ ملك حِمًى، ألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صَلَحَت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

رواه البخاري ومسلم

رسم بياني لأعمال الإنسان المكلّف